تراجع استعمال العلامات الواسمة للمؤنث في خطاب المثقفين السعوديين: منطقتا نجد والحجاز نموذجا

دكتور/ هشام بن صالح القاضي

معهد اللغويات العربية، جامعة الملك سعود

ملخص

إن أحد أهم الجوانب التي يظهر فيها ثراء اللغة العربية جانب الخصائص الاجتماعية (السوسيولوجية)، ومنها ذلك التنوع الكبير الذي تتضمنه العربية في باب الجنس/الجندر مثلاً تقسيماً إلى نوعين هما المذكر والمؤنث. إذ تخصص اللغة العربية عدداً من الأدوات للدلالة على جنس الأنثى ومنها النون الدالة على جموع الإناث (أو ما اصطلح عليه النحويون بنون النسوة) لتخصيص دلالة الفعل والضمائر بهنّ.

تهتم هذه الدراسة بما انتشر على ألسنة المثقفين السعوديين في الحواضر الكبرى (منطقتي الحجاز ونجد) من لغة صهرت العاميات الدنيا المتحدثة في الأرياف والقرى والمدن الصغرى بما يشبه مستوى اللغة الفصيحة، وذاعت على ألسنة الإعلاميين الشباب خاصة. إذ اختفت أو كادت أن تختفي تلك الميزة الفصيحة الدقيقة الدالة على جموع الإناث في هذا الخطاب ليس من باب التعميم فقط بل حتى في مخاطبة النساء مباشرة، وشكّل ذلك ظاهرة لغوية ملحوظة في الأوساط المثقفة المختلفة، استحقت الفحص والنظر.

وتكشف النتائج التي توصلت إليها الدراسة التحليلية تأكيد تلك الفرضية، حيث تشير الاستخدامات اللغوية ــ التي تشكل دلالة إحصائية في الخطاب محل الدراسة ــ إلى أن ثمة نزوعاً لإهمال نون النسوة في الخطاب الثقافي العام من المتحدثين والمتحدثات بلغة المثقفين على السواء حتى من قِبل الأكاديميين والمهتمين باللغة العربية أنفسهم. وتُستبدل الأدوات اللغوية الدالة على التذكير بالنون الدالة على الإناث بحسب نتائج الدراسة في هذا الخطاب تحديداً، وهي مفارقة لغوية اجتماعية مهمة. وتناقش الدراسة هذه الظاهرة وتجلياتها وما يمكن أن تؤول إليه في مقاربة ضمن ميدان اللغويات الاجتماعية.

The Role of the Mid-Level Arabic Variation in Supporting Language Masculinity: A Sociolinguistic Reading of the Saudi Context

Hisham S. Alkadi, PhD
Assistant Professor in Applied Linguistics
Teacher Training Department
Arabic Linguistics Institute
King Saud University
Saudi Arabia, ArRiyadh

Abstract

Arabic language embodies several sociolinguistic features. Given that the modern standard Arabic (MSA) provides specific gender characteristics, in which males and females are signaled, Arabic designates a number of attributes to indicate females such as 'Noon Anniswah' (the noon of females). In theory as well as in practice, 'Noon Anniswah' specifies that pronouns and verbs are meant to denote females. As Arabic is spoken in different social levels, creating a linguistic phenomenon known as diglossia, this study endeavors to analyze the language of well-educated Saudi people (males and females). Particularly, it is interested in the level of Arabic language within urban areas such as greater Riyadh and Hijaz which comes near to the MSA.

It was hypothesized that 'Noon Anniswah' is gradually disappearing in media, academic and other contexts. Results of this analytical study confirmed that the hypothesis is true. Statistically, the linguistic practice of such discourse showed a quite sharp inclination to abandoning 'Noon Anniswah' in general. Whether by female or male speakers and whether by academics, 'Noon Anniswah' is disregarded in speech. The present study also showed that male linguistic features are employed instead of the abandoned female features, which seems a rather paradoxical sociolinguistic practice.

١ مقدمة

إن من المسلم به في الدراسات اللسانية أن البيئة الاجتماعية والثقافية التي تحتضن اللغة (أو تحتضنها اللغة) تلقي بظلالها الكثيفة على الاستخدام اللغوي، على الدلالات والألفاظ والأصوات وعلى الكتابة (وجودا وعدماً وتنوعاً)، بل حتى على التنوع اللغوي والتعددية اللغوية واستخداماتها ومستوياتها. وفي الواقع اللغوي الاجتماعي تظهر العربية في مستويات لغوية/اجتماعية متعددة فيما يُسمى "الازدواجية اللغوية" diglossia، بحيث يستخدم في اللغة العربية ذاتها أنماطٌ مختلفة متعددة لأغراض اجتماعية مختلفة. ورغم كونها ظاهرة معقدة خاصة في باب الدراسة اللسانية أو تعلم اللغة وتعليمها لغير الناطقين بها على وجه خاص، فإنها من جهة أخرى واقع لغوي ذو سياقات اجتماعية وثقافية تحتاج إلى النظر العلمي والسبر اللغوي والبحث المنهجي باستمرار. ولقد نشأت التداولية فرعاً خاصاً بدراسة تلك التأثيرات السياقية كمثال من تلك الظلال الكثيفة. وفي هذا الباب، يبرز علم اللغة الاجتماعي بوصفه مجالاً يضم طيفاً واسعاً من تلك التأثيرات كعلاقة اللغة بالهوية والعقيدة والسياسة وطبقات المجتمع ... ومن تلك المباحث ما يهتم بالجندر، حيث تخصص بعض اللغات أدوات وخصائص تتناغم مع البيئة الثقافية التي تعيش فيها.

ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتبحث العلاقة اللغوية–الاجتماعية في محصلة الجندر في العربية، ضمن نطاق المجتمع السعودي وفي بيئته الثقافية العليا التي تبني خطابها على أسس توجيهية باعتبارها الفئة المتعلمة التعليم العالي وتُشيعه عبر الإعلام بصوره المختلفة. وفي المفارقات بين ما تقدمه اللغات من خصائص وأدوات وبين طريقة استخدام (أو تجاهل) المتحدثين بها مباحث مهمة ونتائج مثيرة للاهتمام العلمي واللغوي والاجتماعي على السواء.

تهتم الدراسة الحالية بتحليل خطاب "لغة المثقفين" في الحواضر الكبرى في منطقتي الحجاز ونجد في المملكة العربية السعودية، مستجلية الخصائص اللغوية/الاجتماعية في مخاطبة المؤنثات والآثار التي يتركها ذلك الخطاب على المستويين اللغوي والثقافي. وبشكل أكثر تحديداً فإن الدراسة تحاول الإجابة عن مدى وجود/اختفاء السمات الجندرية التي تحملها لغة المثقفين في المملكة العربية السعودية لدى مخاطبة جموع الإناث.

وسيتطرق الباحث في الفصلين القادمين بتفصيل مزيد إلى السياق اللغوي الاجتماعي للدراسة قبل الحديث عن الدراسة الإجرائية وطريقة البحث والتحليل ونتائجها[١].

٢ السياق اللغوي الاجتماعي

إن الخطاب اللغوي ذو نظام عميق بالغ التعقيد خاصة على المستوى غير الواعي لمنتجيه، إلا أن له دوراً مؤثراً ظاهراً في تشكيل الوعي الثقافي للمجتمعات. وتبدو على السطح تلك الآثار الثقافية كأنها من صنع صيرورة اجتماعية أو حضارية، لكنها في العمق نتاجُ ذلك التشكيل الخطابي. وفي النهاية تبدو الأمور كما لو كانت عبثاً بريئاً، بيد أن لكل خطاب أصحابه الذين هم بدورهم ينتجون ويحددون "نظام الخطاب" الذي يمارس الهيمنة المعرفية من حيث لا يشعر المثقفون في هذا الحقل أو ذاك، كما يقول فوكو[٢]. وسط ذلك الخَفاء، يبرز التحليل الخطابي بوصفه آليةً قادرة على استكشاف محددات ذلك الخطاب ونظامه[٣] من خلال الحفْر اللغوي العميق لإعادة استنبات ورسم الدور الإنتاجي بشقيه الواعي واللاواعي. وتتيح الدراسة المتأملة حسب هذه المنهجية قراءةً ناقدة وعيناً نافذة للواقع الثقافي والاجتماعي كما ينعكس في المنتج اللغوي.

نلقي الضوء في هذا السياق على أربع زوايا: الازدواج اللغوي في العربية، وقضية الجندر في اللغة العربية، وماهية لغة المثقفين التي تبحث الدراسة في إطارها الاجتماعي، بالإضافة إلى السياق الاجتماعي اللغوي في نجد والحجاز.

٢,١ الازدواج اللغوي

ظاهرة الازدواج اللغوي diglossia ظاهرة ليست خاصة بالعربية ولا بعدد قليل من اللغات. والظاهرة تنطوي على حالة لغوية اجتماعية متصلة بعدد من المستويات اللغوية المختلفة داخل اللغة ذاتها، بحيث يكون لكل مستوى وظيفة لغوية وسياق اجتماعي خاص، فيما يعرف مثلاً باللغة العليا واللغة الدنيا كالفصحى والعامية في اللغة العربية. وهي حالة مختلفة عن الثنائية اللغوية bilingualism التي تعني استخدام الشخص أو المجتمع للغتين مختلفتين تماماً كالعربية والأوردية. ورغم أن ظاهرة الازدواج اللغوي وتوصيفه قديم إلا أنه ظهر جَليّا في الدراسة اللغوية بعد اهتمام فيرغسون ومقالته في ١٩٥٩ التي عرف فيها الازدواج اللغوي بقوله: "الازدواجية حالة لغوية مستقرة تقريباً، بحيث يوجد عدد من اللهجات المختلفة جداً ... إلى جانب لغة رئيسة قياسية وربما إقليمية، مكتوبة، تحمل أدبيات اللغة وثقافتها، وتكون هي المستخدمة في التعليم النظامي

وفي الكتابة وفي الأحاديث الرسمية، ولكنها ليست مستخدمة في المحادثات اليومية في أي من قطاعات المجتمع"[٤].

ومن هنا يتبين نوعان اجتماعيان لتلك الحالة اللغوية: أولهما نوع عالٍ (H) يستخدم للأغراض الرسمية والتعليمية وحفظ الثقافة، والآخر دانٍ (L) للمحادثات العادية في المجتمعات الصغيرة المختلفة وهو في الغالب غير مكتوب[٥]. وليست العربية إلا واحدة من اللغات العالمية التي تظهر فيها الازدواجية اللغوية إلى جانب عدد كبير من اللغات كالفرنسية والهندية والإندونيسية. ورغم أن هذا السياق اللغوي/الاجتماعي أصبح مبحثاً شائعاً في دراسات علم اللغة الاجتماعي، فإن بعض اللغات ومنها العربية أصبحت تُدرس من وجهة نظرٍ أكثر تفصيلاً. إذ تعددت المستويات اللغوية والأغراض الاجتماعية التي تصنف فيها اللهجات واللغات لاحقاً إلى ثلاثة مستويات (الفصحى القرآنية والفصيحة المعاصرة واللهجات المختلفة) كما هي عند Watson [٦] وHoles [٧] وOwens [٨]، فيما أضحى يسمى triglossia (الثلاثية اللغوية عوضاً عن الازدواجية)، وإلى أربعة مستويات quadriglossia [٩] وربما إلى أكثر من ذلك[١٠].

ويطرح السعيد بدوي[١١] في كتابه "مستويات العربية المعاصرة في مصر" خمسة مستويات لغوية/اجتماعية هي على الترتيب من المستوى اللساني/الاجتماعي الأعلى إلى الأدنى كما يلي:

١- فصحى التراث: وهي العربية التراثية (القرآنية)، وهي مكتوبة بصفة رئيسة إلا أنها موجودة في أحاديث المساجد والبرامج الدينية في التلفاز مع بعض التعديل العصري على المستوى الصوتي.

٢- فصحى العصر: وهي التي يعبر عنها اللسانيون الغربيون بالـ MSA (العربية القياسية العصرية)، إذ إنها نسخة محدثة من الفصحى التراثية تحوي عدداً من الألفاظ والمصطلحات الحديثة التي سُكّت من خلال الاعتماد على الأصل القياسي الفصيح أو استعيرت من اللغات الأجنبية وخاصة الأوروبية. واللغة بهذا المستوى تستخدم مكتوبة في الأساس ومنطوقة لدى المؤهلين في الأوساط الثقافية، وفي الغالب فإنها مستخدمة في نطاقات رسمية وتعليمية وإعلامية، وعليها الاعتماد في القراءة والكتابة في العالم العربي.

٣- عامية المثقفين: وهي نوع مخفف من الفصيحة العصرية، تستخدم من قبل المثقفين و"روّاد الجامعات" في الحوارات الجادة والمجتمعات التعليمية العليا على وجه خاص، ولكنها غير مستخدمة في الكتابة غالباً. وكما يشير السعيد بدوي، فإنها تتضمن عدداً كبيراً من الألفاظ الدخيلة خاصة تلك المتعلقة بالتقنيات الحديثة كالكمبيوتر والإنترنت... ويشيع استخدامها كذلك في الإعلام المسموع والمرئي لوصولها إلى نطاقات أكبر بكثير من المستويات اللغوية/الاجتماعية الدنيا من جهة، ولسهولتها وخفتها من جهة أخرى. ويُشار إلى هذا المستوى اللغوي في أدبيات أخرى بـــ ESA "لغة المتعلمين المنطوقة"، و بـــ FSA "العربية المنطوقة الرسمية"[١٢].

٤- عامية المتنورين: ويعرفها بدوي بأنها لغة المتعلمين (الحاصلين على التعليم الأساسي) فيما دون عامية المثقفين وفوق عامية الأميين، وهو نوع مستخدم في المحادثات اليومية وعلى التلفاز مما يدخل في الحوارات غير العلمية، وتتضمن ـــ بحسب بدوي ـــ قدراً كبيراً من الاستعارة المعجمية.

٥- عامية الأميين: وهي عامية تتميز بعدم تأثرها بالفصيحة العصرية، وقلة استعارتها للألفاظ الأجنبية، وتشتهر على ألسنة الطبقات الاجتماعية الدنيا من غير المتعلمين.

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذا التقسيم الخماسي الذي يطرحه بدوي تحديداً، ولا ببحث الأسباب الاجتماعية واللغوية التي أدت إلى نشوء ظاهرة الازدواجية (أو حتى الخماسية) اللغوية، لأن هذا المبحث قد تطرق إليه كثيرون في اللغة العربية من جهة، ولأننا نذكر هذا المبحث بصفته مقدمة علمية ومنطقية مهمة للدراسة الحالية من خلال تأكيد وجود هذه الظاهرة وسماتها وتقسيماتها التي تتجاوز المستويات الثلاثة في أقل تقدير حسبما تواضع عليه اللسانيون في الأبحاث والدراسات التي تطرقنا لها.

٢,٢ اللغة العربية والجندر

لا تعد الدراسة اللغوية في الجندر (أو الجنوسة كما يترجمها البعض) حديثة النشأة فتاريخها يمتد إلى الستينيات من القرن الماضي[١٣]. ومع ذلك فإن مفهوم الجندر اللغوي ظل مشتبهاً بعض الشيء مع بقاء الجزء الأكبر بطبيعة الحال متعلقاً بالثنائية (ذكر/أنثى) في الاستخدامات اللغوية والاجتماعية[١٤]. بعبارة أخرى، فإن الجندر يتعلق بدراسة ظواهر التذكير والتأنيث اللغوية، وما هو مذكر أو مؤنث من القوالب والمضامين في السياق اللغوي، وليس بالضرورة أن ينطبق ذلك على القسمة الجنسية:

الذكر والأنثى. وفي الوقت الذي تشتكي فيه بعض المجتمعات من تجاهل لغاتها للتأنيث ليس فقط في الخطاب العام التجريدي، بل حتى في مواقع العمل، وفي ضمائر الخطاب والغياب بإزاء عدد من الخصائص الصرفية والنحوية، الأمر الذي أصبح "طبيعياً" من خلال الممارسات اللغوية اليومية[١٥]، فإن اللغة العربية على العكس تولي اهتماماً بالغاً في توصيف الأنثى على الأقل في المستوى المباشر لا التعميمي التجريدي.

وليس يهمنا هنا المحاججة في التحيز اللغوي الذكوري، أو تغليب المذكر على المؤنث، في خطاب التعميم (انظر مثلاً دراسة أبو زيد[١٦]، وحمد[١٧])، أو الدرس المقارن بين اللغات في هذا السياق، فهو موضوع يكاد يكون قد أشبع بحثاً، لكننا نشير فقط إلى أن الحركات النسوية العالمية ذاتها لم تستطع التخلص genderless من عبء الفحولة اللغوية masculinity في الخطاب العام. وقد عجزت المثقفات والأديبات والنسويات العربيات عن إقامة خطاب نسوي موجه إلى الإناث دون حضور التذكير بأدواته اللغوية حتى ولو كان ضمن كتاب عنوانه "الأنثى هي الأصل"! [١٨]

غير أن اللغة العربية غير معنية بهذه الممارسة الاجتماعية؛ لأن الأدوات والخصائص اللغوية التي تزخر بها العربيةُ قادرةٌ على ملء الفراغ الخطابي، أو بالأحرى استبدال السيطرة الذكورية، في الضمائر والأسماء والأفعال وفي الألفاظ المختلفة لأماكن العمل، والمصطلحات المتنوعة للعلوم، والمفردات المميزة لخطاب مؤنث بمعانيه وأغراضه الاجتماعية والاتصالية، وإقامة خطاب أنثوي متكامل عن الأنا المتكلمة والثانية المخاطبة والثالثة الغائبة، وعن الأنثى الواحدة أو الثنتين أو جموع الإناث، بكل ما يتضمنه التركيب من تغييرات صرفية وبنيوية [١٩]. ليس هذا مزية فريدة تختص بها العربية وحدها فعدد من اللغات كالفرنسية والإسبانية والروسية واليونانية تقدم خصائص الجندر هذه أو أكثرها. غير أن عدداً كبيراً من اللغات تفتقد بعض تلك الخصائص والأدوات كالصينية والإنجليزية على سبيل المثال [٢٠].

في العربية، وعلى مستوى مواقع العمل، يمكن لنا أن نلحق تاء التأنيث بأي منصب فنقول أستاذة وطبيبة ودكتورة وطالبة ومعلمة ومديرة...، غير أننا لا نستطيع ذلك صرفياً (إلحاقياً) في الإنجليزية بل علينا أن نضيف كلمة female فنتوسل بها لتخصيص الوصف بالـــ" أنثى" في كل كلمة من الكلمات السابقة. وفي الضمائر مثلاً يمكن في العربية أن نشير إلى مجموعة النساء بضمير خاص هو نون الإناث، (هنّ يرقصن

ويتحدثن) في حين لا يمكن في الإنجليزية إلا أن نقول "هم يرقصون ويتحدثون"، وتلك أمثلة فقط.

٢,٣ لغة المثقفين

سنعتمد من خلال نقاشنا لمستويات العربية المعاصرة (في الفصل ٢,١) أربعة مستويات اجتماعية: الفصحى، والفصيحة، ولغة المثقفين، والعامية. ومن هنا فإنه يمكن لنا أن نتبين لغة مستعملة اليوم على نطاق واسع خاصة في الجامعات وعلى شاشات التلفزة وفي الإذاعات الرسمية على وجه خاص، بالإضافة إلى اللقاءات والندوات والحوارات شبه الرسمية. وبما أنها اللغة التي تعتني الدراسة الحالية بتحليلها خطابياً فإنه ينبغي علينا أن نتوقف لتوصيفها وبيان بعض خصائصها خاصة أن الدراسات اللغوية الاجتماعية شحيحة في هذا الإطار.

إننا ننطلق في هذا التوصيف من مبدأ التشكّل اللغوي الذي يعْتوِر هذا المستوى من العربية كما يصاحب بقية المستويات اللغوية. إذ ينصهر ذلك المبدأ في مجموعة من العوامل الثقافية والاجتماعية التي تصاحب النمو اللغوي لأي مجتمع، حيث يكون الهدف التواصلي للمخاطبين حجر الأساس الذي تبنى عليه الخصائص اللغوية لأي تشكل جديد. ويُضاف إلى ذلك الهدف طبيعة السياق الثقافي والاجتماعي والمقام التواصلي الذي ينطلق منه المتحدثون بلهجة ما. وبسبب هذا فإنه يمكننا بسهولة ملاحظة التشابه اللهجي بين اللهجات المتجاورة جغرافياً، في حين يضعف الشبه أو ينعدم حين تتباعد تلك اللهجات. لقد تشكلت اللغة الفصحى القرشية مثلاً بسبب التواصل الثقافي والاختلاط الاجتماعي مع عدد كبير من الثقافات والمجتمعات التي كانت تأتي كل عام للحج والتجارة كما أشار إلى ذلك السيوطي [٢١] وشوقي ضيف [٢٢]. وكما لا يمكن إثبات الأساس اللغوي تاريخيا وعلمياً برد هذه اللغة إلى مستوى لغوي معيّن أو لهجة عربية محددة، فإن لغة المثقفين التي نناقشها اليوم تشكلت كذلك بواسطة عدد من العوامل الثقافية والاجتماعية التي هي محل بحث لغوي تاريخي يخرج عن نطاق بحث هذه الدراسة فضلاً عن إمكان إثبات ذلك علمياً. وبهذا فإنه يمكننا التعامل مع هذا التكوين بوصفه واقعاً لغوياً/ثقافيا هو أعلى ما في اللهجات المحكية والعاميات من حيث قربها للفصيحة.

ونحن في هذا الإطار نعتمد على عدد من الأدبيات العلمية السابقة التي أشارت إلى هذا المستوى اللغوي ووصّفته، واستخدمته تحت عدد من الأسماء والمصطلحات مثل "اللغة البيضاء" في إشارة إلى المساحة اللغوية المشتركة وحيادية الانتماء، و"اللغة الثالثة" التي تعني مستوى لغوياً ليس بالفصيح ولا بالعامي، و"اللغة العليا" حسب تقسيم فيرغسون وفيشمان السابق ذكره، كما يطلق عليها أيضاً "لغة المثقفين" [٢٣]، و"عامية المثقفين" [٢٤]. والمصطلح "لغة المثقفين" هو فيما يبدو أفضل تسمية لهذا المستوى اللغوي من مستويات العربية في هذه القائمة لاعتبارات مختلفة أولها: أن بقية المصطلحات لا تزال ملتبسة فاللغة الثالثة لا تصلح إلا للتقسيم الثلاثي فقط، واللغة العليا قد تعني الفصيحة، وقد تعني مفهوماً مختلفاً جداً وهو لغة الشعر الذي سمي في النقد الغربي الحديث [٢٥] بهذا الاسم[٢٦]. أما "اللغة البيضاء" فإنها شديدة الالتباس علاوة على أن التسمية غير علمية أساساً. وثاني تلك الاعتبارات: أن مصطلح "لغة المثقفين" مقترن بكونها لغة وهي تجاوز جيولغوي للمستوى "العامي" في المصطلح "عامية المثقفين" الذي قد يسيطر على منطقة أو إقليم لكنه لا يكون مفهوماً لأكثرية المتحدثين بالعربية، كما لو قلنا عامية المثقفين المغاربة وعامية المثقفين المصريين وهكذا. وحينما نشير إلى المستوى العامي فإننا نعني تلك اللهجات المحلية المرتبطة بمناطق محدودة في العالم العربي، وهي محليات مقيدة على المستوى الدلالي، ومختلفة على المستوى الصوتي عن جاراتها القريبة فضلاً عن أمها الفصيحة المعاصرة وجدتها الفصحى التراثية.

ويمكن لنا أن نجمل خصائص لغة المثقفين فيما يلي:

١- على الصعيد الاجتماعي هي لغة متوسطة لا ترتقي إلى الفصحى القرآنية ولا إلى الفصيحة العصرية، ولا تهبط إلى الدارجة الإقليمية ولا إلى العامية المحلية.

٢- وعلى المستوى النحوي يغلب عليها طابع التيسير في الإعراب وتسكين أواخر الكلمات بغرض السرعة والاختصار، ويندر فيها استخدام المثنى وجمع المذكر السالم المرفوعيْن.

٣- وفي باب المعجم اللغوي تعتمد على الشائع القريب ويكثر فيها الاستعارة اللغوية من لغات أجنبية لأغراض ثقافية إما بسبب انعدام المرادف العربي أو بعده عن الذهن، أو لأسباب علمية كذكر المصطلحات العلمية وأسماء الاختراعات الحديثة، أو لأهداف اجتماعية كالتباهي بمعرفة اللغات الأجنبية.

٤- وفي الإطار الجغرافي فإن لغة المثقفين لغة تزدهر في البيئات الحضرية وتكاد تنعدم في البيئات الريفية والقروية، بينما تغطي مساحة جغرافية واسعة مقارنة باللهجات العامية على اختلاف مستوياتها.

٥- أما ثقافياً فهي لغة عالية تُستخدم من قبل المثقفين ورواد الجامعات والحاصلين على التعليم العالي، وتحضر في الحوارات الجادة والمجتمعات التعليمية والأكاديمية على وجه خاص. كما أنها غير مستخدمة في الكتابة غالباً إلا ما كان عبر وسائط التواصل التقني. ويشيع استخدامها كذلك في الإعلام المسموع والمرئي للأغراض التواصلية بدرجة أولى.

٢,٤ السياق الاجتماعي اللغوي في نجد والحجاز

يتحدث أهل الحجاز وأهل نجد مجموعة من اللهجات المحلية المختلفة في تفاصيلها الصوتية والمعجمية، غير أن للإقليمين لهجتين يمكن تحديد بعض خصائصهما من حيث العموم. وفي حين يتسم أهل الحجاز بالتعددية الثقافية والعرقية بسبب وجود المدينتين المقدستين، فإن أهل نجد يكاد ينتظمهم طيف ثقافي وعرقي واحد. وفي المناطق الواقعة على اتساع رقعة هذين الإقليمين تنتشر مجموعة من القبائل والعوائل العربية التي امتزجت في حواضرها الكبرى امتزاجاً كبيراً في العصر الحديث بسبب التنمية والتوطين [٢٧]، بحيث لم تعد المواطن الأصلية ذات معنى إلا في البحث التاريخي ودراسة الأنساب ومساكن القبائل وحركتها. وأدت هذه الحركة الاجتماعية ــ المبنية على إرادة سياسية في بسط الأمن والاستقرار والدفع للاشتغال بالزراعة ــ كما يقول الريحاني [٢٨] والزركلي [٢٩] إلى تحسن المعيشة وازدهار اقتصادي وتعليمي. كما أتاحت اختلاطاً واسعاً بين البدو والحاضرة في حواضر الإقليمين أدى إلى تجانس ثقافي واجتماعي [٣٠].

يأتي هذا السياق الاجتماعي المازج بسبب الحركة الثقافية والتعليمية والنهضة العمرانية إلى جانب أسباب سياسية واكبت توحيد المملكة مما يتصل بالدراسات الديموغرافية [٣١]، وهو ما أحدث تطوراً في التركيبات السكانية صاحبه تطور ثقافي على مستوى العادات واللباس وتطور لغوي ظهرت من خلاله لغة المثقفين جلية في التخاطب بين فئات المجتمع المثقفة ضمن الوسائط الإعلامية والتعليمية على وجه خاص.

إن من البدهي أن لهجة نجد والحجاز (أو مجموعة اللهجات المحلية هذه) هي تلك اللهجات التي يتحدث بها قاطنو هذين الإقليمين من الجزيرة العربية. أما لهجة نجد فتستوطن منطقة جغرافية شاسعة نسبياً حيث تمتد من حدود اليمن جنوباً إلى حدود الأردن شمالاً ومن الأحساء شرقاً إلى جبال الحجاز غرباً وهي قلب المملكة العربية السعودية اليوم [٣٢] وحاضرتها منطقة الرياض. وأما الحجاز فهي تلك المنطقة الواقعة بين خيبر شمالاً والليث جنوباً ومما يلي المدينة شرقاً حتى سواحل جدة غرباً [٣٣]، وحواضر الناطقين باللهجة الحجازية مكة والمدينة وجدة والطائف. ولسنا نحتاج إلى التفصيل في مجموعة اللهجات المحلية التي تغطيها الدارجة النجدية ولا تلك المجموعة التي تشملها الدارجة الحجازية [٣٤]، أو المقابلة بين اللهجتين النجدية والحجازية، لأن الإطار الذي تعتني به الدراسة الحالية هو المستوى اللغوي الأعلى من العاميات فيما اصطلحنا على تسميته بلغة المثقفين. كما سنضرب صفحاً عن ذكر دقائق الاختلافات الصوتية والوصف الفونولوجي لأن الاهتمام منصب هنا على تحليل الخطاب لا على التحليل الصوتي، لكن من المهم ذكر بعض الخصائص اللغوية المشتركة بين اللهجتين في هذا الإطار الزمكاني المحدد.

يعتقد الباحثون الأصواتيون أن العربية الفصيحة اليوم مشتقة في الأساس من اللهجات القديمة في وسط وشمال الجزيرة العربية [٣٥]، بينما يُقسّم النحويون العرب اللهجات/اللغات القديمة إلى ثلاث مجموعات: لغات الحجاز، ولغات نجد، ولغات القبائل المجاورة، ومن المعلوم أن لغة قريش الحجازية كانت في مستوى عالٍ من البهاء والصفاء اللغوي [٣٦]. ومنذ ذلك الحين فإن لهجة الحجاز الحضرية المتداولة في مكة وجدة والمدينة والطائف قد تطورت بشكل ملحوظ، بحيث اختلفت كثيراً عن العربية الفصحى وعن وريثتها العربية العصرية [٣٧]. كما أن لهجة نجد التي تغطي المناطق الحضرية الوسطى من الجزيرة العربية وأهمها الرياض قد تطورت أيضاً واختلفت عن الفصحى، لكنها ظلت أقرب من الحجازية للفصيحة العصرية بسبب عزلة النجدية الجزئية عبر التاريخ، بالمقارنة مع منطقة الحجاز الجاذبة للثقافات المختلفة بطبيعة الحال [٣٨]؛ إذ دخلت المفردات المستعارة من اللغات التركية والشامية والمصرية واليمنية وغيرها إلى اللهجة الحجازية لأسباب دينية كالحج والعمرة ولأسباب سياسية كالنفوذ العثماني الطويل، فيما لم يحدث مثل تلك التأثيرات الكبرى في اللهجة النجدية.

ومن هنا فإن الخصائص اللغوية (الجندرية) المتعلقة بالتذكير والتأنيث بالذات ــ وهذا ما يعنينا هنا ــ مختلفة بين اللهجتين [٣٩]، إذ تتجاهل الحجازية الحضرية ضمير الجمع المؤنث للمخاطب والغائب، فيما تقترب الحجازية البدوية (لهجة القبائل الحجازية) في هذا السياق من اللهجة النجدية أكثر مولية التذكير والتأنيث اهتماماً أكبر. غير أن المنطقتين الثقافيتين النجدية والحجازية على المستوى الأعلى أي على مستوى لغة المثقفين، تتمتعان بإنتاج لغة ذات خصائص جندرية متقاربة كما سنرى.

٣ الدراسة

ترتكز الدراسة على استطلاع النطاق اللغوي العالي في البيئتين الاجتماعيتين في نجد والحجاز وسياقِهما الثقافي فيما يُسمى لغة المثقفين ــ كما عرفناها في الفصل ٢,٣ ــ وتهدف إلى الإجابة عما إذا كانت لغة المثقفين التي هي أقرب إلى الفصيحة منها إلى العامية تحمل الخصائص الجندرية ذاتها التي تحملها الفصيحة. فيما يأتي تفصيل لأهمية الدراسة الإجرائية الحالية وأهدافها والمنهجية البحثية المتبعة وصولاً إلى النتائج.

٣,١ أهمية الدراسة وأهدافها

تتميز اللغة العربية الفصحى وربيبتها الفصيحة المعاصرة بميزات لغوية جندرية تفصيلية في الإسناد إلى المذكر والمؤنث (راجع الفصل ٢,٢). ورغم انعدام الخصائص اللغوية التي تنتج خطاباً عاماً هو عطل من التذكير والتأنيث على السواء genderless، فإن الإسناد إلى ضمائر المخاطبين والمخاطبات أو الغائبين والغائبات مخصص بأدوات جندرية مبينة. وفي هذا تحديداً فإن العربية تخصص عدداً من الأدوات اللغوية للدلالة على جنس الأنثى كتاء التأنيث، والألف والتاء لجموع المؤنثات، والنون الدالة على جموع الإناث (أو ما اصطلح عليه النحويون بنون النسوة) لتخصيص دلالة الفعل والضمائر بهن في مقابل ميم الجمع للذكور.

إن ثمة بحوثاً كثيرة قديمة [٤٠] وحديثة [٤١] تحققت من الاستعمالات اللغوية الجندرية في خطاب المثقفين فيما يتعلق بالفصحى التراثية والفصيحة المعاصرة [٤٢]، إلا أن عدداً نادراً من البحوث ــ إن وجد حقاً ــ حاول فحص الخطاب وتحليله جندرياً في المستويات الدنيا من الفصيحة المعاصرة MSA على ما بينا في التقسيم للمستويات الاجتماعية اللغوية للغة العربية. وقد لمس الباحث في المستوى الأعلى من الدارجة مما

اصطُلح على تسميته بلغة المثقفين ندرة استعمال النون الدالة على الإناث رغم وجودها عملياً في المستويات اللغوية الاجتماعية العليا والدنيا.

وتبرز أهميتها في تحليل ذلك الخطاب المثقف في حواضر منطقتي الحجاز ونجد الكبرى، وتحديداً ذلك الموجه للنساء رغبة في استكشاف حالة خصائص التأنيث اللغوية في مخاطبة جموع النساء (نون النسوة) وما لذلك من دلالات ومضامين لغوية واجتماعية وثقافية. وتزداد أهمية الدراسة بكونها متعلقة بالخطاب المثقف الذي تحمله "لغة المثقفين" المنتشرة على ألسنة الإعلاميين في الرياض وجدة وغيرهما من الحواضر في المملكة العربية السعودية؛ حيث تجيب هذه الدراسة عن السؤال: هل تحمل لغة المثقفين في المملكة العربية السعودية السمات الجندرية في مخاطبة جموع الإناث؟

ويجدر بنا التنويه إلى أنه قد سبقت الإشارة إلى ماهية "لغة المثقفين" وخصائصها في الفصل ٢,٣، وإلى النطاق البحثي لهذه الدراسة في الفصل ٢,٤. أما السمات الجندرية المميزة لجمع الإناث فإننا نقصرها في نطاق هذه الدراسة بتلك النون الدالة على التأنيث في الجمع سواء في الضمائر المنفصلة مثل أنتن وهُن (للرفع)، وإياكن وإياهن (للنصب)، أو ما لحق بالفعل من الضمائر المتصلة مثل فعلنَ، وفعلتن (وهي ضمائر رفع)، أو ما اتصل بكاف الخطاب أو هاء الغيبة مثل: أعطيتكن وأكرمتهن، وعرفت بناتكن وأبناءهن. وهذه السمات هي المقابلة للأدوات المميزة لجموع الذكور مثل: أنتم، وهم، وإياكم، وإياهم، وفعلوا، وفعلتم، وأعطيتكم وأكرمتهم، وبناتكم وأبناءهم، فيما يقابل الأمثلة السابقة. ولم نفرق هنا بين النون الدالة على الإناث كالمتصلة بكاف الخطاب في الأمثلة أعلاه والتي لا محل لها من الإعراب، ونونِ النسوة التي هي ضمير، وما استتبعه من الاختلاف بين النحويين في التسمية والاصطلاح والتفريق بين النون وما سبقها وغير ذلك لأن هذا مبحث نحوي لا يتصل بما تبحثه هذه الدراسة.

٣,٢ منهجية الدراسة

تنتهج الدراسة المنهج الوصفي النوعي متخذة أسلوب التحليل الخطابي أداةً لتحليل "لغة المثقفين" ضمن نطاق الدراسة المحدد، وذلك في سياقات اجتماعية وثقافية مختلفة في المملكة العربية السعودية. وقد اتبع الباحث أسلوب طرح الفرضية واختبارها المبدئي في دراسة تجريبية مصغرة قبل إجراء الدراسة الفعلية، للتأكد من الأدوات البحثية

وصلاحية العينة وتمثيلها الحقيقي للنطاق المذكور، وفيما يلي إلقاء الضوء على خطوات اختبار الفرضية واختيار العينة وجمع البيانات وتحليلها.

٣,٢,١ اختبار الفرضية

يحسن دائماً قبل بدء الدراسة الفعلية إجراء دراسة اختبارية مصغرة. وفي الأبحاث المبنية على اختبار الفرضية ــ كما هي الدراسة الحالية ــ، فإن الدراسة تتطلب عينة اختبار صغيرة في سياق الدراسة ذاته بحيث تبدو الفرضية في النهاية مقبولة أو مرفوضة. تفترض الدراسة: أن ورود نون النسوة في خطاب المثقفين نادر الحدوث (أقل من ١٠%) بحيث تحل الأدوات الذكورية مكان الأدوات الدالة على التأنيث في سياق مخاطبة جموع النساء. وقد استخدم الباحث عينة مصغرة في السياق الثقافي العالي الذي يعد أحد الاستخدامات الاجتماعية للغة المثقفين. وتحديداً وقع الاختيار على دورة تدريبية تقدمها إحدى المدربات والاستشاريات السعوديات من منطقة نجد لجمهور نسائي. وكانت النتيجة تأكيد الفرضية وقبولها بنسبة عالية جداً (تجاوزت ٩٩%)، بحيث كانت المدربة تعامل المثنى والجمع المؤنث معاملة الجمع المذكر في خطابها كاملاً مع الإدراك الواضح الذي دل عليه خطابها بأنها في محضر كامل من النساء كما أنها تعامل المفردة المؤنثة بشكل صحيح حسب معايير اللغة الفصيحة.

٣,٢,٢ عينة الدراسة

جمع الباحث عينة الدراسة باستيفاء عدد من المعايير التي تتفق مع الإطار النظري والسياق الاجتماعي وهي:

- أن تغطي العينة بنسبة متقاربة منطقتي نجد والحجاز باعتبارهما الإطار الجغرافي المحدد في هذا البحث حسبما فصلنا فيما سبق.
- أن تكون العينة من الأشخاص القادرين بحسب التقسيم اللغوي/الاجتماعي على إنتاج لغة المثقفين بشكل طبيعي ودون تكلف.
- أن تشمل العينة عدداً من المواقف اللغوية في ذات السياق الخاص بلغة المثقفين كالسياق الإعلامي والأكاديمي والتعليمي والتدريبي.
- اختلاف جنس المتحدثين والمتَحدَّث إليهم بحيث تشمل العينة حديث رجلٍ إلى نساء، وامرأةٍ إلى نساء، وحديث رجل وامرأة إلى عموم الجنسين، وحديث نساء إلى العموم كذلك.

٣,٢,٣ جمع البيانات وتحليلها

من خلال المعايير التي التزمها الباحث في تحديد العينة، اجتمع لديه هذه البيانات المكونة من ستة مواقف بسياقات مختلفة:

١. دورة تدريبية في الحوار الزوجي موجهة للنساء تقدمها إحدى المدربات.
٢. محاضرة أكاديمية موجهة للطالبات يلقيها أحد الأساتذة الجامعيين.
٣. لقاء إذاعي من جدة حول الصورة الذهنية لدى النساء الأجنبيات عن المملكة العربية السعودية، يقدمه مذيع من منطقة الحجاز، ويستضيف امرأة من منطقة نجد.
٤. لقاء إذاعي من الرياض في موضوع التطوع تقدمه مذيعة وتستضيف فتاتين.
٥. لقاء إذاعي من جدة عن الفروقات العقلية بين الرجل والمرأة يقدمه مذيع ويستضيف امرأة.
٦. لقاء تلفازي من الرياض حول السماح للنساء بالعمل في الصيدليات يقدمه مذيعان (رجل وامرأة) يحاوران ضيفاً متخصصاً.

وقد فُرغت جميع هذه البيانات الصوتية والمصورة في شكل نصي من أجل تحليلها، فكان العدد الإجمالي لكلمات النصوص المفرغة كتابياً ما يقارب ٢١ ألف كلمة. إذ شكلت مجتمعة مخزناً لغوياً/ثقافياً صالحاً بحسب المعايير العلمية إلى جانب المعايير المذكورة في الفصل السابق لإجراء التحليل الخطابي.

يدل "الخطاب" في الدراسة اللسانية على "الكلام" و"النص المكتوب" الذي تجاوز الجملة الواحدة مكوناً بمجموعه دلالة موضوعية[٤٣]. وفي المناهج البحثية، فإن تحليل الخطاب مصطلح عام يتضمن عدداً من المقاربات الفلسفية والمدارس الفكرية ومنها تحليل الخطاب النقدي، وتحليل الخطاب النصي، والتحليل الحواري، والتحليل التداولي...، إلا أننا مهتمون هنا بتحليل الخطاب اللغوي بوصفه انعكاساً للممارسات الثقافية والاجتماعية مما يتصل بعلم اللغة الاجتماعي. وعلى عكس التحليل البنيوي، يتسم التحليل الخطابي بقدرته على كشف الخصائص السلوكية والاجتماعية لمنتجيه من خلال تركيزه على التفاعل الاجتماعي[٤٤].

في التحليل الخطابي تكون وظيفة الخطاب ونظامه في إطاره الشامل تحت النظر والدراسة من خلال استثمار العلائق اللغوية–الاجتماعية وصولاً إلى نتيجة واصفة

ودقيقة للممارسات الاجتماعية مدعومة بالدلائل العلمية[٤٥]. ويمكن أن تفحصَ الدراسة الإجرائية بيانات تتضمن المقالات الصحافية، والخطابات السياسية، والمحاورات اليومية... غير أن التحليل النصي مركزي في هذه المهمة[٤٦]. وقد استخدم الباحث التحليل الموضوعي من أجل رصد هذه الظاهرة، فظهرت ــ كما سنبين بالتفصيل في الفصل التالي ــ ثماني سمات شكلت بمجموعها محصلة الدراسة الحالية.

٣,٤ هل اختفت نون النسوة في لغة المثقفين؟

أظن أنه ينبغي الإشارة إلى ما نعنيه ببعض المصطلحات في السمات الموضوعية أدناه نفياً للإيهام والإبهام قبل عرض النتائج. فالباحث عندما يشير إلى نون النسوة، فهو يعني الضمير (الاسم) الذي يتصل بالفعل ويؤثر في بنيته الصرفية والإعرابية كقولنا: المثقفات يقرأن الكتب. وأما النون الدالة على الإناث فهي حرف يدل على الجمع المؤنث، يتصل بالاسم والضمائر المنفصلة وبكاف الخطاب وهاء الغيبة ولا محل له من الإعراب، مثل قولنا: أعطيتهن كتبهنّ. وقد سبق التنويه على أنهما يعاملان في هذا البحث معاملة واحدة تحت اسم نون الإناث كهذا المثال الذي يجمع النوعين: النساء يصففن شعورهن، فالأولى نون النسوة والثانية الدالة على الإناث.

ونعني بميم الجمع الحرف الذي يدل على جماعة الذكور، ويتصل بالاسم والفعل ولا محل له من الإعراب مثل قولنا: أعطيكم ما يكفيكم. والمراد بتأنيث الفعل: زيادة علامة لاحقة بالفعل دالة على التأنيث كتاء التأنيث المعروفة. وأخيراً فإن مخاطبة المفردة يتعلق بكل ما هو موجه للمؤنث المفرد بأدواته كضمير المخاطبة (أنتِ)، وكاف المخاطبة، وتاء الفاعل المكسورة، والياء (الضمير المتصل المرفوع) للدلالة على المخاطبة كقولنا: أعطيتكِ وكتبتِ فتكلمي.

وهنا فإننا سنختصر المسافة إلى الجواب عن سؤال البحث، بعرض النتائج الإجمالية بدلاً من العرض المفرد لكل نص في هذه الدراسة الإجرائية. وحيث قام الباحث بتحليل البيانات مستخدماً منهجية التحليل الموضوعي لاستخراج السمات الخطابية في النصوص محل الدراسة، فقد عالجت الدراسة ثماني سمات مشتركة شكلت نمطاً مستقراً في النصوص الداخلة في التحليل الخطابي وهي مسردة في

جدول ١:

جدول ١ السمات الموضوعية حسب التحليل الخطابي للنصوص

	الموضوع/السمة	النموذج من النصوص
١	إدراج نون النسوة في مخاطبة الإناث	فهل تفضلن أن يأتي الاختيار من قبلكن
٢	إدراج ميم الجمع للذكور بديلا لنون النسوة	وكذا أقدر أعطيكم
٣	إدراج بديل لنون النسوة غير ميم الجمع للذكور	بعض البنات جربوا
٤	العدول إلى الإفراد مع تأنيث الدلالة في الفعل	بعض النساء تقع في خطأ
٥	مخاطبة المفردة	يعني شوفي الأمثلة
٦	الخطاب الذكوري	الرجال يحبون الدقة
٧	خطاب التعميم (الجندرالمحايد)	ليش تبوا تتكلموا
٨	معاملة المثنى المؤنث جمعاً مذكراً	وألقى ثنتين ساكتين

لقد شملت النصوص عشرين ألفاً وثمانمائة وخمس (٢٠،٨٠٥) كلمات، كما احتوت النصوص على ما مجموعه سبعمائة وثلاث وسبعون (٧٧٣) خصيصة دالة على الخطاب المقصود في لغة المثقفين والموضوع تحت الدراسة الحالية. ويبين الجدول التالي النتيجة الإجمالية للتحليل الخطابي للنصوص الستة التي شملتها الدراسة الحالية حسبما فصلنا في الفصلين السابقين.

جدول ٢ النتيجة الإجمالية للتحليل الخطابي لنصوص الدراسة

	الموضوع/السمة	مجموع الخصائص	النسبة
١	إدراج نون النسوة في مخاطبة الإناث	٢٧	٣,٤٩٪
٢	إدراج ميم الجمع للذكور بديلا لنون النسوة	٧٢	٩,٣١٪
٣	إدراج بديل لنون النسوة غير ميم الجمع للذكور	١٠١	١٣,٠٧٪
٤	العدول إلى الإفراد مع تأنيث الدلالة في الفعل	٦	٠,٧٨٪
٥	مخاطبة المفردة	٣٣١	٤٢,٨٢٪
٦	الخطاب الذكوري	٢٨	٣,٦٢٪
٧	خطاب التعميم (الجندرالمحايد)	١٩١	٢٤,٧١٪
٨	معاملة المثنى المؤنث جمعاً مذكراً	١٧	٢,٢٠٪
	مجموع الخصائص ذات الدلالة في السمات جميعاً	٧٧٣	١٠٠,٠٠٪

إذا ألقينا نظرة فاحصة فإننا سنلحظ أن السمة الغالبة في هذه النتائج كانت *مخاطبة المفردة*، حيث مثلت أكثر من ٤٢% من إجمالي السمات مما يعطي زخماً واضحاً لحضور الأنثى في الخطاب الذي استلزم التأنيث مستدعياً الأدوات الجندرية الخاصة في توجيه الخطاب إليها. وقد كانت الخصائص الجندرية المستخدمة في لغة المثقفين عند مخاطبة المفردة في النصوص محل الدراسة صحيحة نحوياً بنسبة ١٠٠%، فلم يحدث أن وُجّه الخطاب إلى المفردة المؤنثة باستخدام خصائص جندرية ذكورية أبداً.

غير أننا نجد هذا الأمر يختلف جذرياً عندما نتحول إلى المثنى المؤنث، إذ لم نجد في النصوص كلها الخاضعة للتحليل أن المثنى المؤنث قد عومل معاملة صحيحة باعتبارها مثنى، وقد يصدق القول نفسه على التثنية الذكورية كذلك، فليس هذا خاصاً بالمؤنث إذن. ومع أن هذه المعاملة للمثنى في لغة المثقفين أي إنزال الاثنين منزلة الجمع مقبولٌ في المستوى الفصيح كما في المُرَكّبات وبعض أجزاء الجسد [٤٧] لأن المثنى أدنى الجمع كما ورد في قوله تعالى "فقد صغت قلوبكما"[٤٨] وقوله سبحانه "فإذا هم فريقان يختصمون"[٤٩] وهي ظاهرة معروفة، إلا أن الأمر لا يتوقف في خطاب لغة المثقفين عند جمع المثنى لكنه يقلب التأنيث إلى التذكير.

والعجيب أن جميع ما ورد من المثنيات عوملت هذه المعاملة كقول إحدى المذيعات مخاطبة ضيفتيها "شكرا لكم ... أثريتونا"، وقول أخرى "أنتِ لما تروحين تزورين صاحبتك تسولفون" وحتى لو كانت مباشرة بعد خطاب شمل المعدود المثنى المؤنث كما ورد في أحد النصوص:" وألقى ثنتين ساكتين "، مما يشعر بأن المتحدثين بلغة المثقفين واعون بالمعدودتين الغائبتين والمشاهدتين في خطابهم لكنهم يستخدمون لها أدوات التذكير لأن المثنى في الخطاب جمعٌ كما تقدم والجمع في هذا الخطاب حقه التذكير فقط، كما يبدو من خلال هذا التحليل.

وهذا يقودنا إلى الحديث عن جموع الإناث وهي مقصد هذا البحث، فقد بلغ الاستخدام الجندري الموافق لجموع الإناث (باستخدام نون النسوة) أقل من ٥% من مجمل السمات المستخرجة في خطاب لغة المثقفين، وهي نسبة ضئيلة حقاً. بينما بلغ الاستخدام المخالف أو بعبارة أدق تذكير الجمع المؤنث ١٧٣ مرة مشكّلة ما نسبته ٢٢,٣٨% من مجموع السمات، حيث استخدم المتحدثون بلغة المثقفين أدوات تذكير مختلفة بدلاً من نون الإناث.

وإذا نحن نظرنا للبيانات من وجهة نظر أخرى بحيث نقصر الوصف الإحصائي على السمات الثلاث الأولى فإننا سنجد أن عدد الاستخدامات الجندرية لجموع الإناث (بغض النظر عن التأنيث والتذكير) قد بلغ ٢٠٠ استخدام أو ما نسبته ٢٥,٨٠% من مجموع السمات الجندرية في خطاب المثقفين. كما سنجد أن نسبة استخدام نون النسوة في خطاب جموع النساء هذا تحديداً (أي ضمن المائتي استخدام) وصلت إلى ١٣,٥٠%، بينما تقع النسبة العظمى ٨٦,٥٠% في جانب إبدال نون النسوة إلى خصائص جندرية ذكورية. ومن الطريف أن بعض النصوص التي شملتها هذه الدراسة لم ترد فيها نون الإناث في الجمع المؤنث مطلقاً.

وقد يستخدم المتحدث أو المتحدثة بلغة المثقفين استراتيجية غير واعية (وإن سجلتْ نسبة قليلة في النتائج) لتجنب استخدام نون الإناث من خلال العدول إلى الإفراد مع تأنيث الدلالة في الفعل، وهو ما يتفق مع تسامح لغة المثقفين الكبير مع مخاطبة المفردة وحضور الأدوات الخاصة بها كما أسلفنا. وأما خطاب التعميم المحايد فقد أتى مشكلاً حوالي ٢٥% من مجموع السمات المستخلصة في التحليل الخطابي ضمن هذه الدراسة. وهذا الخطاب وإن كان القصد منه الحياد/التعميم فإنه يستخدم أدوات التذكير للتغليب، كما هي طريقة العربية في هذا الشأن (راجع الفصل ٢,٢ للمزيد).

وتعني هذه النتائج لنا أموراً: أولها أن المتحدثين والمتحدثات بلغة المثقفين كانوا واعين إلى حد كبير تجاوز ٦٧% باختلافات الجندر وأدواته واستخداماتها في العربية. وثانيها أن لغة المثقفين (في النطاق الجغرافي محل الدراسة) قد تطابقت مع العربية الفصيحة في استعمال أدوات التذكير والتأنيث بما يتجاوز الثلثين أي أكثر من ٧٠% إذا أضفنا نسبة استخدام نون النسوة وإدراجها الصحيح في الخطاب العام إلى كل من مخاطبة المفردة وخطاب التعميم. وثالثها أن تجاهل التأنيث لجموع النساء يشكل اتجاهاً اجتماعياً/لغوياً واضحاً في لغة المثقفين سواء صدر الخطاب عن المتحدثين الذكور أو المتحدثات الإناث.

بعبارة أخرى، فإنه لا مجال للقول بأن الخصائصَ الجندرية المتعلقة بالتأنيث في لغة المثقفين والمتحورة عن الأصل الفصيح ذاتُ تركيب مختلف، أو أن الاختلاف فيها اعتباطي، أو أن المتحدثين بها غير واعين بمن يشيرون إليه من حيث التذكير والتأنيث في خطابهم الثقافي. وهذا كله بدوره يصب في قبول الفرضية التي بدأت بها الدراسة

(راجع الفصل ٣,٢,١) وهو أن نون الإناث قد شارفت على الاختفاء في لغة المثقفين ضمن النطاق الجغرافي والسياق الاجتماعي المحدد للدراسة الحالية.

بقي أن نتساءل ما إذا كانت هذه الظاهرة لغوية عامة يعدل فيها المثقفون المتحدثون بالعربية إلى التبسيط، وهو ما يقود إلى توقع اختفاء بعض السمات الدالة على التأنيث في نظام العربية المعاصرة الذي يسرف في التمييز بين المؤنث والمذكر متضمناً ١٣ ضميرا مميِّزاً، وهو عدد كبير مقارنة بلغات أخرى، أو أن هذه الظاهرة خاصة بالمجتمع محل الدراسة فقط محدودة بحدودها؟ وذلك لا شك مجال رحب للباحثين في اللغويات الاجتماعية الذين يمكن أن يسهموا مستقبلاً في تتبع الخطوط الفاصلة بين الجنسين في اللغة العربية في الخطاب العام خاصة في ظل تنامي الحركات النسوية التي تؤكد على إظهار الهوية الأنثوية.

٤ الخاتمة

تقع لغة المثقفين في المستوى العالي القريب جداً من مستوى اللغة العربية الفصيحة، ويكثر استعمالها في النطاقات الإعلامية والتعليمية العالية كالقنوات الرسمية والجامعات والندوات. وهي – بحسب الاسم الذي اعتمدناه – لغةٌ للمثقفين باعتبار مجالات استخدامها والمستوى الاجتماعي للمتحدثين بها. ولأن المتحدثين بها من طبقة يُفترض أنهم في ركب يناصرون فيه قضايا المرأة ضمن هذه المرحلة الحضارية سواء كان ذلك تساوقاً مع الحركة النسوية التي شاعت في السبعينيات من القرن الماضي أو استجابة لنداء ثقافي آخر، فإن ذلك يستدعي حضوراً طاغياً للتأنيث معاكساً أو مساوياً على الأقل لحضور التذكير في الخطاب الثقافي. بيد أن النسق الثقافي العربي أثبت العكس.

فقد تمكن الباحث من رصد الاختفاء التدريجي والتواري للنون الدالة على الإناث في السياقات الإعلامية والأكاديمية وغيرها. وحيث لم يكن لجنس منتِج الخطاب دلالة إحصائية ذات علاقة نوعية بالخطاب المنتَج، فإن الاستخدامات اللغوية في خطاب المثقفين قد شكلت دلالة إحصائية مفادها أن ثمة نزوعاً إلى إهمال النون الدالة على الإناث في لغة المثقفين، حتى من قِبل الأكاديميين والمهتمين باللغة العربية أنفسهم. ويحضر التذكير في مخاطبة الإناث بوصفه بديلاً صالحاً غير مستغرب للنون الأنثوية، وهي مفارقة لغوية اجتماعية ذات دلالة مهمة.

المراجع والهوامش:

[١] لا يفوتني هنا أن أشكر مركز البحوث في معهد اللغويات العربية على دعمه للباحث، كما أشكر الباحثة الأستاذة العنود العنزي في المساعدة على إنجاز هذا البحث خاصة في مرحلة جمع البيانات لهذه الدراسة.

[٢] فوكو، ميشيل: **نظام الخطاب**، ترجمة: محمد سبيلا، بيروت: دار التنوير،١٩٨٤، ص٤.

[٣] فوكو، ميشيل: **حفريات المعرفة**، ترجمة: سالم يفوت، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧، ص ٢٧.

[٤] Ferguson, Charless: "Diglossia", **Word-Journal of The International Linguistic Association,** ١٥, ٢, ١٩٥٩, pp. ٣٢٥–٣٤٠.

[٥] Fishman, Joshua: "Bilingualism with and without diglossia; diglossia with and without bilingualism". **Journal of Social Issues**, Wiley Library: ٢٣, ١٩٦٧, pp. ٢٩–٣٨.

[٦] Watson, Janet: **The Phonology and Morphology of Arabic**, New York: Oxford University Press, ٢٠٠٢, p ٦.

[٧] Holes, Clive: **Modern Arabic: Structures, Functions, and Varieties**, Washington, D.C: Georgetown University Press, ٢٠٠٤, p ٥.

[٨] Owens, Jonathan: "A House of Sound Structure, of Marvelous Form and Proportion: An Introduction", In: **The Oxford Handbook of Arabic Linguistics**, edited by: Jonathan Owens, Oxford: Oxford University Press, ٢٠١٣.

[٩] Ennaji, Moha: **Multilingualism, Cultural Identity, and Education in Morocco**, New York: Springer, ٢٠٠٥.

[١٠] الموسى، نهاد: **الثنائيات في قَضايا اللغة العربية من عَصر النهضة إلَى عَصر العولمة**، عمان: الشروق،٢٠٠٣.

[١١] بدوي، السعيد محمد: **مستويات العربية المعاصرة في مصر، بحث في علاقة اللغة بالحضارة**، مصر: دار المعارف، ١٩٧٣، ص٩٨.

[١٢] Soliman, Rasha: **Arabic Cross-dialectal Conversations with Implications for the Teaching of Arabic as a Second Language**, Thesis: University of Leeds, ٢٠١٤, p ١٩.

[١٣] Wardhaugh, Ronald: **An Introduction to Sociolinguistics**. ٦th Edition, Chichester, UK: Wiley-Blackwell, ٢٠١٠, p ٣٣٣.

[١٤] Cameron, Deborah: "Language, Gender, and Sexuality: Current Issues and New Directions", **Applied Linguistics**, Oxford University Press: ٢٦, (٤), ٢٠٠٥, pp ٤٢٨–٥٠٢.

[١٥] Romaine, Suzanne: "English. A corpus-based View of Gender in British and American English", In: **Gender Across Languages: The Linguistic**

Representation of Women and Men, Volume ١, edited by: Marlis Hellinger and Hadumod Bußmann, Amsterdam: John Benjamins Publishing Company, ٢٠٠١, p ١٥٦.

[١٦] أبو زيد، محمد: "تغليب المذكر على المؤنث في الخطاب القرآني: دراسة في شبهة تمييز الرجل على المرأة"، **ملتقى أهل التفسير** مركز تفسير للدراسات القرآنية، ٢٠١١، http://vb.tafsir.net/tafsir٢٨٣٧٦.

[١٧] حمد، عبدالوهاب حسن: **التغليب في القرآن الكريم**، العراق: مؤسسة دار الصادق الثقافية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

[١٨] الغذامي، عبدالله: **المرأة واللغة**، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٦، ص ١٩.

[١٩] Alkadi, Hisham: "Is It Going to Be a Masculine Language? Exploring the Language-Gender Relationship in Referring to The Other Sex in Arabic Societies", **ARECLS**, Newcastle University: ٩, ٢٠١٢, pp ١١٥-١٤٠.

[٢٠] Hellinger, Marlis, and Bussmann, Hadumod: **Gender Across Languages: The Linguistic Representation of Women and Men**, Edited by: Marlis Hellinger and Hadumod Bußmann, Volume ٣, Amsterdam: John Benjamins Publishing Company, ٢٠٠٣.

٢١ السيوطي، عبدالرحمن جلال الدين: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: محمد جاد المولى – محمد أبو الفضل إبراهيم – علي محمد البجاوي، بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٨٦.

٢٢ ضيف، أحمد شوقي عبد السلام: **تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي**، ط ١١، مصر: دار المعارف، ٢٠٠٣، ص ١١٧.

[٢٣] الأسود، محمد خليفة: "مستويات لغتنا المعاصرة بين الواقع واستشراف المستقبل"، **المؤتمر الخامس للمجلس العالي للغة العربية: اللغة العربية ومشروع الأمة الحضاري**، المجلس العالمي للغة العربية، دمشق، ٢٠٠٨.

[٢٤] بدوي، السعيد محمد: **مستويات العربية المعاصرة في مصر، بحث في علاقة اللغة بالحضارة**، مصر: دار المعارف، ١٩٧٣، ص٩٨.

[٢٥] كوين، جون: **اللغة العليا – النظرية الشعرية**، تحرير: أحمد درويش، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٠.

[٢٦] المعتوق، أحمد محمد: "اللغة العليا بين المنظور المعجمي ومنظور النحو العربي"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، جامعة الملك عبدالعزيز: ٢١، ٢٠٠٢-٢٠٠٤، ص ٢٣٣-٢٧٢.

[٢٧] الشامخ، أحمد عبدالرحمن: **توطين البدو في المملكة العربية السعودية**، الكويت: الجمعية الجغرافية الكويتية، ١٤٠١هـ.

[٢٨] الريحاني، أمين: **نجد وملحقاته وسيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما**، بيروت: مؤسسة الريحاني، ١٩٧٠.

[٢٩]الزركلي، خير الدين: **الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز**، ط٣، بيروت: دار العلم للملايين،١٩٧٧، ص ٧٠.

[٣٠]العثيمين، عبدالله الصالح: **تاريخ المملكة العربية السعودية**، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٧هـ.

[٣١]أبو علية، عبدالفتاح حسن: **الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز**، الرياض: دار المريخ: ١٩٧٦م، ص١٤٧.

[٣٢] Al-Sweel, Abdulaziz: "Verbal and Nominal Forms of Najdi Arabic", **Anthropological Linguistics**, Trustees of Indiana University: ٢٩, ١, ١٩٨٧, pp. ٧١-٩٠.

[٣٣]الغامدي، منصور: "خارطة لهجات المملكة العربية السعودية"، **منصور بن محمد الغامدي:** Mghamdi.com، ١٤٢٤هـ.

[٣٤] Ingham, Bruce: **Najdi Arabic: Central Arabian**, Amsterdam: John Benjamins Publishing Company, ١٩٩٤.

[٣٥] The Phonology and Morphology of Arabic, p ٦.

[٣٦] Versteegh, Kees: **The Arabic Language**, New York, NY: Columbia University Press, ١٩٩٧.

[٣٧] Beeston, Alfred Felix: **The Arabic Language Today,** London: Hutchinson University, ١٩٧٠, p ١٤.

[٣٨] Omar, Margaret: **Saudi Arabic: Urban Hijazi Dialect**, Washington, D.C.: Foreign Service Institute, ١٩٧٥.

[٣٩]انظر مثلاً كلاً من:

Abdoh, Eman: **A Study of The Phonological Structure and Representation of First Words in Arabic**. Thesis: University of Leicester, ٢٠١٠.

Alzaidi, Muhammad: **Information Structure and Intonation in Hijazi Arabic**, Thesis: University of Essex, ٢٠١٤.

[٤٠]السعداوي، نوال: **الأنثى هي الأصل**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤.

[٤١]غصوب، مي: **المرأة العربية وذكورية الأصالة**، لندن: دار الساقي، ١٩٩١.

[٤٢] Sadiqi, Fatima: "Gender in Arabic". **Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics**, Brill Encyclopedia of linguistics: ٢٠٠٦, pp ١-٢١.

[٤٣]الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد: **دليل الناقد الأدبي**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥، ص١٥٥.

[٤٤] Tannen, Deborah: "Discourse and Gender." In: **The Handbook of Discourse Analysis**, ٢nd Edition, edited by: Deborah Tannen, Heidi Hamilton, and Deborah Schiffrin. Chichester, UK: John Wiley & Sons, Ltd., ٢٠١٥.

[٤٥] Wooffitt, Robbin: **Conversation Analysis and Discourse Analysis: A Comparative and Critical Introduction**, London: SAGE Publications, ٢٠٠٥, p ١٣.

[٤٦] Conversation Analysis and Discourse Analysis: A Comparative and Critical Introduction, p٤٣.

[٤٧] ابن سيده، أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي النحوي اللغوي: **المخصص**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الجزء السابع، بيروت: دار الكتب العلمية، بلا تاريخ، ص١٣٩.

[٤٨] القرآن الكريم: سورة التحريم، الآية ٤.

[٤٩] القرآن الكريم: سورة النمل، الآية ٤٥.